الفصل الأول

بناء دولة المرابطين

المبحث الأول

الجذور التاريخية للمرابطين

تمهيد:

تعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقوة شكيمتها وكثرة رجالها الذين ملؤوا الشمال الإفريقي وسكنوا جباله، وسهوله وخصوصاً من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى.

واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلت شعباً انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السنية. وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ أي: أن أصلهم يمانيون.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب[1].

1 – تسمية الملثمين:

اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين، وأصبح اللثام شعاراً عرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين، ويرى بعض المؤرخين أن الملثمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومسراته، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[2].

ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصًا بقبيلة لمتونة ثم توسع وأصبح شعاراً لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها.

---

(1) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، د. سعدون عباس ص(12 – 13).

(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم، ص (27).

2 – سبب تسميتهم:

وأما سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة في سبب تسميتهم بذلك، منها: أن أجدادهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر، ويذهب إلى هذا الرأي من ظن أن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها اقتصادية وسياسية.

ومنها: أنهم آمنوا بالرسول ﷺ وكانوا قلة فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التمويه، وقيل: إن طائفة منهم أغارت على عدو لهم فخالفهم إلى مواطنهم وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ، فأمر الشيوخُ النساءَ بأن يرتدين لباس الحرب ويتلثمن، ففر الأعداء وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه وارتقى عندهم إلى مستوى رفيع في حياتهم وأعرافهم ومما قيل في اللثام:

قوم لهم درك العلا في حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ هُمُ

لما حَوَوْا إحْرَازَ كُلَّ فضيلة ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا[1]

3 – موطن الملثمين:

سكن الملثمون الصحراء الكبرى الممتدة عن غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً.

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجري بها أنهار دائمة وكانت قليلة الأمطار وأحياناً تحبس عنها الأمطار لسنوات عديدة فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة في تلك الصحارى الممتدة الأطراف، وكوّنوا قرى بدائية تتماشى مع ظروف حياتهم الرعوية[2].

4 – حياتهم الاقتصادية:

توزع الملثمون حول الواحات بحثاً عن المياه وعملوا في الزراعة وخاصة زراعة الشعير الذي ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكى التي تسكنها قبيلة لمتونة.

---

(1) انظر: وفيات الأعيان (ج7/ 130).

(2) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص(13).

وكان النخيل من أهم أشجارهم، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمراناً بشجر النخيل واستفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل فزرعوا البطيخ والقرع والكوسى والقثاء. وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة. وازدهرت في واحة سجلماسة زراعة القطن، وقصب السكر. وكانت وسيلة الزراعة في تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائي الذي تجره الجمال.

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيوانات للحصول على قوتهم ولكي يستعملوها في تنقلاتهم، ومن أهم الحيوانات التي اهتموا بها الإبل، والتي كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال وسقف البيوت الصغيرة.

وكذلك اهتموا بتربية البغال والحمير لاستخدامها في النقل المحلي[1].

واهتموا بتربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم، وجلودها وأصوافها في لباسهم، واهتموا بتربية النحل للحصول على العسل والشمع، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي.

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي، وتطورت في الكم والنوع الصناعات المنزلية وكذلك الأدوات الحربية التي ازدهرت بسبب الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا، واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل، وازدهرت الصناعات الغذائية فاستخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره، واستعملوه في طهي الطعام وإنارة السرج ليلاً، وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به أسطح المنازل فيخفف من شدة الحر، ويمنع تسرب الماء، واشتهرت مدينة تارودانت بصناعة قصب السكر، والمنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر، وكانوا يصنعون من ثمار القرع أواني يضعون فيها الملح والبهارات.

ومن أهم المعادن في بلاد الملثمين الملح، ويكثر في أوليل وتغاري، والأخيرة تضم معظم مناجمه وهي على شكل ألواح يقطعها العبيد وتحملها الجمال إلى السودان وغانا، وكان الحمل الواحد يُباع في أيوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب، أما في مالي

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(15).

فكان يُباع بعشرين مثقالاً، وربما ارتفع إلى الثلاثين. كان للملح أهمية في حياتهم الاقتصادية، إذ كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة يقايضون به كالذهب والفضة، وكان الفائض من إنتاجهم الزراعي والصناعي يُصدر إلى خارج بلادهم[1].

5 – أهمية موقع الملثمين:

كانت بلاد الملثمين الممر الوحيد بين الأندلس وأواسط إفريقية فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الأطلسي ينطلق من أغادير ماراً بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل. أما الطريق الثاني وهو الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حيث بلدان مالي والنيجر يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر بأزكي حتى أودغشت في بلاد النيجر.

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقاً، ولا تخلو هذه الطرق من صعوبات طبيعية، فتحرك الرمال يمحي معالمها، وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا يُحمد عقباها، ولذلك احتاجت هذه القوافل للقصّاص من الملثمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارى حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم.

ونشطت حركة التجارة بين إفريقيا الغربية وبلاد المغرب والأندلس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة التي كونت حلقة الاتصال الناجحة والمثمرة للأطراف المشاركه، وكثرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأندلس والمغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي حيث يتم التبادل بالتقايض أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتابعين، ومن أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد: أوغشت، أغمات، أسيلا[2].

6 – الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين:

وأدى ازدهار التجارة في بلاد الملثمين إلى ظهور طبقة من الأثرياء تجمعت لديهم أموال عظيمة بسبب نشاطهم التجاري، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين

(1) انظر: دولة المرابطين ص(16).

(2) انظر: دولة المرابطين، ص(18).

استأثروا بالحكم وحافظوا على مصالحهم، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة من يهدد مصالحها أو يحاول انتزاع مكانتها وثروتها وجاهها، مستخدمين من أجل تلك الأهداف الأساليب المشروعة والمحرمة، ويساندهم في ذلك الفقهاء المحليون الذين ارتبطت مصالحهم بهم وأصبحت أطماعهم والسعي لتحقيقها فوق أحكام الله.

واحتكرت هذه الطبقة الأراضي الزراعية في الواحات، وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية، أي جميع مصادر الثروة، وكانت تبني بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر الناس، ومعلوم لدى الدارسين والباحثين في تاريخ المجتمعات البشرية أنه عندما تظهر طبقة ذات غناء مفرطة ينتج عنه ظهور طبقة من الفقراء المدقعين في فقرهم، وهذا ما حدث في المجتمع الملثم، حيث نجد أن عامة الناس أصابهم الفقر واضطروا إلى الاشتغال برعي المواشي وبالعمل في الأراضي الزراعية، ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلالاً مشيناً، وكانت طبقة الفقراء تتعرض للمجاعة في سنوات الجفاف وكانت منازلهم من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود كالأكواخ.

وظهرت في المجتمع الملثم كثرة العبيده الذين استخدموا وسخروا للعمل في مناجم الملح، وجلهم كانوا أسرى في الحروب التي نشبت بين الملثمين والوثنيين، وارتفع شأن العبيد فيما بعد فكانوا فرقة خاصة في جيش المرابطين، واشتهرت المرأة الملثمة بالجمال، وهي سمراء اللون، وبعض نساء الطبقة العليا كانت لهن منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال في بعض الأحيان.

وانتشرت عادات خبيثة في المجتمع الملثم تتنافى مع تعاليم الإسلام، بل هي عادات غارقة في مستنقعات الجاهلية، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربع حرائر، وعادة الزنى، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلك المجتمع واضطربت تصوراته وانحرف عن الصراط المستقيم بعد ما كان أجداد هذا المجتمع قد آمنوا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة، بل كان أجداد هذا المجتمع دعاة إلى الله، ورفعوا لواء الجهاد وخاضوا حروباً في سبيل إعلاء كلمة الإسلام الخالدة التي وصلتهم بعد فتح الأندلس.

واشتهر من ملوك الملثمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شوكة من يعاديه الملك «تيولوثان بن تيكلان اللمتوني» الذي حارب القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام،

وبعد وفاته سنة 222 هـ خلفه حفيده الآثر الذي دام حكمه حتى وفاته عام 287هـ فخلفه ابنه تميم الذي قتل عام 306هـ/ 920م على يد مشايخ صنهاجة.

وبعد ذلك افترقت كلمة الملثمين وضاعت كثير من تعاليم الدين واستمر شتاتهم مدة مئة وعشرين سنة إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني[1] الذي وحدهم، وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنيين، فقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي قاد قومه نحو دين الله بعد رجوعه من حجه ورحلته المشهورة.

(1) انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص(746) نقلاً عن دولة المرابطين ص(19).

المبحث الثاني

الأمير يحيى بن إبراهيم (الزعيم السياسي)

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيداً مطاعاً في قومه لما عرف عنه من شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية واشتهر برجاحة عقله ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار الملثمين قاصداً بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج تاركاً الحكم لابنه إبراهيم عام 427هـ - 1035 م[1].

وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالباً للعلم لإرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التي اندرست معالمها في بلاده ورمت به أقدار الله في حلقة إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» الذي تعلقت نفس الأمير يحيى بتعالميه وفقهه وعرض نفسه على الإمام أبي عمران الفاسي الذي ورث زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية، واستردت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلماً من معالم أهل السنة في الشمال الإفريقي.

وأعجب الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية[2].

وتذكر بعض كتب التاريخ، أن أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط الأولى مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنيه في المغرب على أسس

---

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(19).

(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص(38).

دينية صحيحة كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة، وفي ذلك يقول صاحب كتاب «بعض مشاهير أعيان فاس في القديم»: «ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم، ندبه إلى قتال برغواطة، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك»[1].

وكان يحيى بن إبراهيم حريصاً على أخذ فقيه وعالم معه إلى قومه، ورأى أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها أنه لا بد من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين.

فأحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات إلى النور يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة التي كانت قبائل صنهاجة الملثمة تعاني من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها.

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح، وقد لاحظ الأمير يحيى بن إبراهيم أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيأوها لإنشاء الدول، كانوا جميعاً من المتحمسين من علماء الدين، أو أصحاب الدعوات الدينية سواء كانت خارجية بدعية، أو إسماعيلية كفرية، أو إدريسية مالكية، من أمثال: أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الخارجي، وأبي عبد الله الشيعي الباطني، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، حتى برغوطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية تزعمها رجل يدعي أنه من أهل العلم، وهو ميسرة الفقير، وحتى قبيلة غمارة تزعمها صالح البرغوطي الذي زعم أنه «صالح المؤمنين» الذي ورد ذكره في القرآن[2].

---

(1) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص(271).

(2) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، ص(160).

لهذه الجولة التاريخية التي مرت في ذاكرته حرص على الاهتمام بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيه العالم السني ليعلم قومه ويزكيهم ويفقههم.

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ويهتم بدعوة القبائل الوثنية للإسلام.

وبدأ الأمير في شق طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الرباني والفقيه المالكي والمربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبد الله ياسين، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.

المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة لدولة المرابطين (٣٦٨هـ - ٤٣٠هـ)

ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» ترجمة أبي عمران الفاسي فقال: «هو موسى بن عيسى بن أبي حاج بن وليم ابن الخير الغَفَجُومي، وغَفَجُوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببني أبي حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن»[1].

1 – شيوخه:

تفقه بالقيروان عند أبي الحسن القابسي، وسمع بها من أبي بكر الدويلي، وعلي ابن أحمد اللواتي السوسي، ورحل إلى قرطبة، فتفقه بها عند أبي محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخل العراق، فسمع من أبي الفتح ابن أبي الفوارس، وأبي الحسن علي بن إبراهيم المستملي، وأبي الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين[2] ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبي الحسن بن أبي فراس، وأبي القاسم السقطي، وبمصر من أبي الحسن ابن أبي جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح سيدها المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنى الناس بقوله[3].

2 – أثره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمي سنة 402 هـ، حين عاد من المشرق، فقد جلس للطلبة في المسجد، وفي داره أيضاً، وسرعان ما عُرف قدره، واشتهرت إمامته، وطار ذكره في

---

(1) و(2) ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، (ج7/ 243 – 244).

(3) انظر: مدرسة الحديث في القيروان، (ج2/ 765 – 766).

الآفاق، وقد خلف الإمام القابسي المتوفي سنة 403هـ، في نشر علوم السُّنَّة في إفريقية ورئاسة العلم بها، ورحل إليه الناس من الأقطار لسماع مروياته واستجازه من لم يستطع الاجتماع به[1].

وكان يجلس في حلقته العلمية من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر، يحدثهم ويملي عليهم، ويقرأ لهم، «فلا يتكلم بشيء إلا كُتب عنه إلى أن مات»[2].

وكان يحدث بصحيح البُخاري و«التاريخ الكبير» له أيضاً، و«تصحيف المحدثين» للدارقطني، وكان يحدّث كذلك بمصنفاته في الحديث والرجال والفقه، وقد انتشرت روايتها في الأندلس أيضاً عن طريق تلاميذه من أهلها[3].

وكان متضلعاً في كلام الرواة جرحاً وتعديلاً، ومعرفة سيرهم ووفياتهم وغير ذلك.

وكان العامة من أهل القيروان خصوصاً يرجعون إليه فيما يلم بهم ويستفتونه.

كما كان الموفدون في مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ويستفتونه ويستفيدون من علمه.

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب، وما نتج عن ذلك الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية[4].

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الناس من أهل إفريقية والمغرب والأندلس، وصقلية، قال الذهبي: «تخرج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء»[5].

3 – ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه الحافظ حاتم الطرابلسي: «لقيته بالقيروان في رحلتي سنة402هـ، وكان من أحفظ الناس، وأعلمهم وكان جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي ﷺ، والمعرفة بمعانيه، وكان يُقرىء بالسبعة، ويُجودها مع المعرفة بالرجال، والمعدلين منهم والمجروحين...»[6].

---

(1) – (3) انظر: مدرسة الحديث في القيروان، (ج2/ 765 – 766).

(4) انظر: مدرسة الحديث في القيروان، (ج2/ 765 – 766).

(5) سير أعلام النبلاء (ج17/ 546).

(6) ترتيب المدارك(ج7/ 246) الطبعة المغربية.

وقال الذهبي: «الإمام الكبير العلامة عالم القيروان... أحد الأعلام... تخرج به خلق من الفقهاء والعلماء»[1].

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر - وكان إذ ذاك بالموصل - لاجتمع فيها علم مالك: أنت تحفظه وهو ينصره لو رآكما مالك لسر بكما»[2].

4 - شعره:

عندما كتب محمد بن علي الطبني أبياتاً من الشعر وأرسلها إلى أبي عمران الفاسي بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجابه أبو عمران الفاسي بهذه الأبيات:

حياك رب من خل أخي ثقة ... وصان نفسك بالتكريم مولاها
من كل غم وشان لا يوافقها ... فهو العليم بما يبديه مولاها
ولا أضاع لها الرحمن حرمتها ... وقولها إن تسر ودعتك الله
فالله يجمعنا من بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البر أسناها[3]

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين
وتوفي رحمه الله سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة.

(1) سير أعلام النبلاء (ج17/ 545 - 546).
(2) ترتيب المدارك (ج7/ 246).
(3) المصدر السابق (ج7/ 52).

المبحث الرابع

الزعيم الديني لدولة المرابطين

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي أصله من قرية «تماماناوت» في طرف صحراء غانة[1].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين[2] واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقهياً عالماً ديناً تقياً مربياً فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي كان عالماً بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن الملثمين من قبيلة جدالة في عام 430هـ/ 1038م فاستقبله أهلها واستمعوا له وأخذ يعلمهم، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيراً من الصعوبات، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلُّون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعم الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم. واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا أن يقتلوه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلق الناس به، فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

---

(1) دولة المرابطين، ص(21) نقلاً عن البكري المغرب، ص(165).

(2) ابن الخطيب، الخلل، ص(191).

ومن خلال كتب التاريخ نستطيع أن نقول: إن عبد الله بن ياسين -رحمه الله- نجح في رسالته الدعوية لأسباب مهمة يجب أن يعرفها الدعاة إلى الله، ألا وهي ما وهبه الله من صفات فطرية وما اكتسبه في حياته من صفات عقلية وصفات حركية.

أ - ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

1 - **الذكاء**: فكان -رحمه الله- عميق الفهم صاحب حجة، يقيم الدليل على خصومه من الفقهاء، والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان أنسب لتربية أتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبعد نظره ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية، ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

2 - **الشجاعة**: حيث إنه دخل الصحراء داعياً إلى الله تعالى مع أن غيره من تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي جهاده، حتى إنه استشهد في إحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شجاعاً عظيم الاحتمال ومارس أفضل الشجاعة، ألا وهي الصراحة في الحق، وكتمان السر إذ إنه كان قد خطط مع يحيى بن إبراهيم المراحل العملية ولم يتسرب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ.

والشجاعة في الحق وفي ميادين القتال بالنسبة للمسلم تدل على قوة عقيدته وسلامتها من غبش التصور وانحراف المنهج، ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة وينمي الشجاعة، ويلهب المشاعر، ويذكي الروح ويربط الفؤاد وينور العقل، ويوسع المدارك، والعاملون في الدعوة إلى الله، ينبغي عليهم أن يكونوا شجعاناً فهي منه وإليه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: 173 - 174].

وحامل دين الله، ينبغي ألا يستكين، ولا يجبن، ولا يخور عزمه؛ لأنه صاحب رسالة مقدسة من عند العليم الحكيم، سار على نهجها رسل الله من قبل، فنصرهم الله وانتقم من عدوهم.

قال الشاعر:

إن نفساً ترتضي الإسلام ديناً ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام في أرض مهيناً ثم تهوي العيش نفس لن تكونا
في عداد المسلمين العظماء[1]

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله من أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل، ونزيل بها المنكرات الظاهرة، وندمغ الشبهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال الشاعر:

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد لك مهرباً وتلاقتِ الصفانِ
فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً والشرعَ سيفك وابد في الميدان
والسُّنَّة البيضاء دونك جُنة واركب جواد العزم في الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى فالصبر أوثقُ عُدةِ الإنسان
واطعن برمح الحقِّ كُلَّ معاندٍ لله درُّ الفارسِ الطعان
واحمل بسيف الصدقِ حملة مخلص متجردٍ لله غيرِ جبان[2]

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون في مواطن القبائل التي ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها ليقودوها من جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة التي استهدفها كل من النصارى واليهود والملاحدة الحاقدين.

3 - المهابة: ومن الصفات التي ظهرت لي في سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيباً قوياً شديداً فمن الأدلة على قوته البدنية، خوضه الحروب بنفسه وتقدمه في

(1) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، أحمد القطان، جاسم المهلهل، ص(20).
(2) نونية أبي عبد الله القحطاني، ص(39).

ميدان الفروسية بل جعل من منهجه الذي ربي عليه أصحابه في هذا الجانب قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

وفسر الرسول ﷺ القوة في هذه الآية بالرمي بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**»[1]، والرماية إن لم تخرج من ساعد قوي ومتين فهي لا تحقق الهدف المطلوب، وفي السنة نجد القوة البدنية لاقت حظاً وافراً، فالرسول ﷺ هو أقوى الأقوياء، وكان يشجع أصحابه ﷺ على اكتساب هذه الصفة، بل ربما كان يباريهم، ويصارعهم، ويسابقهم، وكما تحدثنا السيرة عن ذلك، يروى مرة أنه تسابق ﷺ مع عائشة رضي الله عنها مرة، ثم سبقته مرة، وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته ﷺ لأحد أصحابه فصرعه.

ومر ﷺ على صبيان يرمون بالسهام فأخذ يرمي معهم ويشجعهم ويذكي فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة، ويقول: «**ارموا فإن أباكم إسماعيل كان رامياً**»[2].

وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله بن ياسين وأصحابه، ولذلك تظهر لنا صلابة وقوة أتباعه في ميادين القتال.

ومفهوم القرآن للقوة عام يشمل كل أنواع القوة، قال السعدي -رحمه الله- في تفسيره قوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] أي: «كل ما تقدرون عليه، من القوة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك».

فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة، التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم بها شر أعدائهم، وتعلم الرمي والشجاعة، والتدبير»[3].

لقد جمع عبد الله بن ياسين -رحمه الله- من القوة الفكرية أنواعاً متعددة من قوة الإدراك، وقوة الصبر، وقوة العلم، وقوة التلقي، وغيرها من القوى.

---

(1) رواه مسلم رقم (910).
(2) رواه البخاري فتح الباري، (ج6/ 431).
(3) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص(22).

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين في الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين، البدنية والعقلية وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها في الدعوة إلى الله[1].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القوة العقلية الفكرية وإلى القوة البدنية في بيـن أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال، في سبيل عقيدتها وحريتها، وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومنّ عليه بهاتين القوتين البدنية والعقليّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]. فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية، وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البدنية، قال الشيخ حسن البنا - رحمه الله - في الأصل الأول من الأصول العشرين: إن القوة تشمل قوة الإنسان التي تجعله قوياً في نفسه وبدنه وعقله، وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قوياً، أما قوة نفسه فبالإيمان، وأما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها، أما قوة عقله فبالعلم»[2].

والإنسان المسلم الذي وهبه الله القوة العقلية والفكرية والبدنية لا ينسى دائماً وأبداً قوة القوي العزيز الذي أمده بكل خير وفلاح وصلاح، وما سوى قوة الله فهي قوة ضئيلة هزيلة، مهما أوتيت من وسائل البطش والقوة والتنكيل، فهي بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41][3].

قال سيد قطب - رحمه الله - في ظلاله: «وإن أصحاب الدعوات، الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة، ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة المعادية، التي تحاول سحقهم وإبادتهم، كلها خيوط في حساب العقيدة الصحيحة»[4].

4 - الأمانة: ومن الصفات الفطرية التي تميز بها الزعيم الديني لدولة المرابطين الأمانة، فحين وجد الفقيه عبد الله ياسين أن القلوب التفت حوله، وأصبح الآمر الناهي في قبائل الملثمين، لم ينافس الأمير يحيى بن إبراهيم في منصبه، بل نجده لم يتجاوز حدوده، ولم يتدخل في سلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته وإبعاده من

(1) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص(22).
(2) انظر: رسالة التعليم، ص(10).
(3) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص(22)، نقلاً عن طريق الدعوة في الظلال.
(4) انظر: الظلال لسيد قطب، نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات، ص(22).

الطريق ليتبوأ الزعامة السياسية والدينية معاً، وهذا يدل على أمانة الداعية الفقيه عبد الله بن ياسين، والأمانة صفة مهمة للعاملين في الحركة الإسلامية، فهي ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلى الله فتجذبهم للانخراط في ميادين العمل الإسلامي الواسعة والمحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين.

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها، ومفهوم الأمانة في القرآن واسع جداً.

وقد وصف الله المؤمنين الذين نالوا الفلاح في الدنيا والآخرة وورثوا جنة الفردوس بصفات منها الأمانة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: 8].

يقول سيد قطب - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «وراعون لأماناتهم وعهدهم أفراداً، وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة، والأمانات كثيرة في عنق الفرد، وفي عنق الجماعة، والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة، عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يحمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة، وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات وترعى فيها العهود»[1].

فعبد الله بن ياسين - رحمه الله - اتصف بالأمانة فعظم شأنه في نظر أتباعه وفي تاريخ المسلمين؛ لأنه كان أميناً في نفسه ومع إخوته، وحمل أمانة الإسلام، وبذل كل ما في وسعه، وتحرك بمنهج الله في دنيا الناس لتحكيم شرع الله، فأكسبته هذه الصفة في نفوس الناس قبولاً.

5- الحياء: والصفة الخامسة الفطرية التي جبل عليها عبد الله بن ياسين الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان، ويظهر ذلك جلياً عندما طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى بن إبراهيم للدعوة فلم يعارض ولم يناقش بل استجاب لشيخه كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن إبراهيم الذي تملك قلبه حب عبد الله بن ياسين، وأسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة الناس لدين الله، فعندما عرض الأمير يحيى على

(1) في ظلال القرآن، ص(2456).

عبد الله بن ياسين رباطاً في ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين الذي كان عازماً على ترك جدالة ولمتونة لما أصابه من عنتهم وظلمهم وجورهم في بداية دعوته لهم. وعرف العلماء الحياء فقال: «أصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح»[1].

وقال الجنيد: «إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير»[2].

فالحياء من المعاني والصفات الرائعة التي يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس، وكان الرسول ﷺ أشد الناس حياءً، وقد وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذارء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[4]، ومن الحياء غض البصر، وخفض الجناح، وعدم رفع الصوت إلا في وجه الباطل.

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يلازموا هذه الصفة الجميلة.

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعو إليه الشريعة وتحث عليه، هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام، وفي نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدؤوب للإسلام، ومناصرة الحق والذود عنه، والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[5].

إن هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة لا بد منها في أخلاق الدعاة الربانيين ولا يمنعهم هذا الخلق أن يفرطوا في معالي الأمور والصعود على سلم الفضائل، والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه.

---

(1) و(2) الصفات اللازمة لحياة الدعاة، ص(26 - 27).

(3) البخاري فتح الباري، (ج12/ 151).

(4) رواه البخاري (6117).

(5) رواه مسلم رقم (35).

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[1].

6 - **الحلم**: والصفة السادسة من الصفات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحلم، فنجده عندما تمكن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع وانقاد لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق.

فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب، فيصبر ويتأنى، ولا يثور.

من هنا ينبغي على الداعية أن يملأ صدره بالحلم، لأن طريق الدعوة محفوفة بالمكاره، والمتاعب والإيذاء، والبطش، والسخرية، وهذه كلها عقبات تزدحم في وجه الداعية والدعاة إلى الله[2].

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم، قال تعالى عن هود عليه السلام:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 66 - 68].

صورت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذي يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم والسباب والسخرية بدعوة التوحيد، ووضح لهم مهمة رسالته وأخيراً نصحهم بالحسنى وأنه أمين على ذلك.

أما رسول الله ﷺ فكان حلمه، يفوق حد التصور، وخصوصاً إذا علمنا أن حلمه، كان مع القدرة على البطش ورد الفعل بأنكى وأعتى، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه برادئه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ

(1) رواه مسلم (ج1/ 261).

(2) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص(30).

وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: «يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[1].

إن الدعاة إلى الله تعالى الذين يسعون لإقامة شرع الله على منهج النبوة الخالد، لمحتاجون إلى هذه الصفة الرفيعة في حركتهم الدائبة والمستمرة وإن كتب التاريخ الإسلامي تبين لنا أن طلائع الفتح والتمكين دائماً وأبداً تكون هذه الصفة بارزة في صفوفهم.

7 - **الجاذبية الفطرية**: وهذه الصفة بارزة للعيان في شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيه ابن ياسين.

لقد استطاع أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبي بكر بن عمر، وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم، ولا شك أن ما ذكرناه من هذه الصفات المهمة في شخصية الداعية هي من العطايا العظيمة التي يهبها الله لفئة من عباده الذين أخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله تعالى متمثلاً فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162 - 163].

ب - من الصفات المكتسبة في شخصية الفقيه ابن ياسين:

1 - الصدق:

وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخالطته للناس، فكان صادقاً في دعوته وفي عرضها، وفي مخاطبته للناس، ولا يهاب أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا همزة هماز، ولا لمز لماز.

ولمس الناس صدقه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي حربه للبدع وفي تعليمه للناس وجهاده في سبيل الله فتأثر أتباعه به غاية التأثر.

وحثنا القرآن الكريم على التخلق بهذه الصفة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

---

(1) أخرجه البخاري في الفتح (7/ 63)، الحديث (3149).

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35].

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم تحثهم على الصدق، فعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[1].

ويعتبر الصدق من أهم صفات المنتسبين للعمل الإسلامي القائمين بإرشاد الناس إلى دين الله فليعلم ذلك كل داعية، وَلْيَعِ تماماً أن دعوته جاءت بالصدق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33].

وقد شهد المؤرخون حتى الذين طعنوا في دولة المرابطين على صدق زعيمها عبد الله بن ياسين، لقد ساد ابن ياسين في قبائل الملثمين بصدقه في دعوته.

2 - ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال:

ويظهر ذلك جلياً في شخصية ابن ياسين عندما باشر الأمير يحيى بن عمر اللمتوني القتال وأمضى الحرب بنفسه فأدبه ابن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة وبين له أن ذلك خطأ، لأن الأمير لا يقاتل وإنما يحرض الناس ويقوي نفوسهم فإن حياة الأمير حياة عسكره، وموته فناء جيشه.

واعتبر عبد الله بن ياسين أن إقدام الأمير يحيى على القتال فيه تهور وعدم ضبط النفس.

كما يدل على ضبط نفس الفقيه ابن ياسين، وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته، واستكمل أمره وأخذه بمراحله، وربى رجاله، ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقاً منصوراً، ولم تستطع القوة المعارضة له أن تقضي عليه[2].

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي، إلى كثير من الجدال والتحدي والأذى، فعليه أن يتحلى بالصبر، وضبط النفس؛ لأن طريق الدعوة كما هو معروف طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التهور والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تُحمد عقباه.

---

(1) أخرجه البخاري فتح (13/ 121)، الحديث (2094).

(2) انظر: روض القرطاس ص(79 - 80).

إن ضبط النفس يتم بموازين محددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله، ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذٍ يغضب، ويندفع ويتعجل الأمور فيتورط، ولقد ذكر لنا القرآن قصة تعطي هذه المعاني، وتصورها لنا تصويراً كأننا نلمسه ونشاهده، تلك قصة الملأ من بني إسرائيل: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 246].

وفي هذه القصة عبر وعظات، فإن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً، قد يكون أشد الناس جزعاً وانهياراً ونقضاً للعهد: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246].

وهكذا نكثوا وعدهم، وتفلتوا من الطاعة، ونكصوا عن التكليف، وهذا شأن المتهورين المتسرعين، الذين لا يقدرون الظروف، ولا يحسبون الصحيح ولا يعرفون قيمة للتكاليف الملقاة على عاتقهم[1].

ورحم الله الشيخ حسن البنا حيث يقول: «أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع - إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات... ألجموا نزوات العواطف، بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة، والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون، فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»[2].

فينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيداً ويتركوا عنهم

(1) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص(44).

(2) مجموعة الرسائل، لحسن البنا، ص(180).

الحماس المتهور، ويتفهموا أصول العمل ويدركوا الواقع الذي يحيط بهم وينبذوا المجازفات الفاشلة لأن واقعنا المعاصر يحتاج إلى صفة ضبط النفس وعدم التهور للعاملين في الدعوة إلى الله ﷻ .

3 - الإرادة القوية:

لقد شهد المؤرخون المسلمون وغيرهم أن ابن ياسين - رحمه الله تعالى - كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال، آمن بسمو دعوته، وقدسية فكرته، وعزم على أن يعيش لها ويموت في سبيلها، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة، فعليه أن يصبر في عزيمة قوية، وإيمان ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك.

فداوم على العمل الجاد وأخذ بقوة وعزم ومثابرة ومصابرة حتى تحقق إعزاز دين الله في تلك الصحارى القاحلة المقفرة الخالية من العلماء والفقهاء، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهاده مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء والمجاهدين.

فينبغي علينا ونحن في طريق الدعوة سائرون أن نأخذ أمر الدعوة بقوة، وإرادة قوية وعزيمة ماضية، وهمة متطلعة للمعالي، ونترك حياة الرخاء واللين والدعة، ونقتدي بسيد الدعاة الرسول ﷺ في عزمه وقوة إرادته وجمال صبره وشدة تحمله وعظم حلمه.

ج - الصفات العقلية التي ظهرت في شخصية ابن ياسين:

1 - القدرة على الفهم والاستيعاب:

استطاع ابن ياسين أن يفهم ويستوعب المناهج العلمية التي كانت في زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها من العلوم، حتى تأهَّل لأن يكون أهلاً لحمل الرسالة التي كلفه بها شيوخه، كما انجلى لي قدرته على فهم واقعه الذي يريد تغييره وحدد أولويات المرحلة التي هو فيها وشرع في إصلاحها، كما أنه استوعب الظروف السياسية في زمانه، واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

فينبغي على العاملين في الدعوة الإسلامية أن يكون لهم وعي سياسي بواقعهم، وخبرة بالأساليب الحركية والتنظيمية، ومهارة في التخطيط المنظم المتزن حتى نستطيع أن نواجه العدوان الشرس الموجه لأمتنا الإسلامية، ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب على الأخ الداعية، أن تكون عنده قدرة على الفهم والتجاوب وسرعة في التنفيذ، وأن يتسلح بالمعرفة التامة وأن يفهم دعوته حق الفهم كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ. قال عمر ﷺ: «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

2 - النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك في سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين، عندما طلب فقهاء سجلماسة ودرعة في عام 447هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكام الطغاة الظلمة من زناتة المغرواين ومن أميرهم مسعود بن أنودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد العون لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله»، فأخذ قراره الحاسم وتحركت جموع المرابطين في شهر صفر سنة 447هـ إلى بلاد درعة، واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتت جموعهم ودخل ابن ياسين سجلماسة، وأصلح أحوالها وقدم عليها عاملاً من أتباعه وجعل فيها حامية من جنوده ورجع إلى الصحراء[1].

فعلى العاملين في الدعوة الإسلامية، الاتصاف بصفة النظر الثاقب، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أي تردد، ودون أي ريب، لأن الداعية الرباني ينظر بنور الله، وهذا النور الإلهي، إذا حل في قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة، التي يعرف بها الحقائق، ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب[2]. ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 35].

د - الصفات الحركية التي ظهرت للباحثين في شخصية ابن ياسين:

1 - الشعور بالمسؤولية:

وبدأ الشعور بالمسؤولية في حياة ابن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود للعلم والاستعداد للدعوة، وازداد ظهور ذلك في شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى بن إبراهيم في قبائل الملثمين، حيث تولد في أعماقه شعوراً بمسؤولية الدعوة في هذه الأمة الجاهلة من قبائل صنهاجة، وكان شعوراً جرى في عروقه جريان الدم، فأحس بعظمة التكليف، وأعباء المسؤولية فقام بأدائها خير أداء.

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم، ص(42).

(2) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص(63).

إن الأمة الإسلامية في هذه الأيام بمسيس الحاجة إلى العناصر التي تتحرك ذاتياً نحو مسؤوليتها، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعوراً وإحساساً بواجباتها الإسلامية، وبحاجة إلى عناصر يغلي فيها الشعور لهذا الدين، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليل أو نهار.

فالشعور بالمسؤولية أمر لا بد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية، لأن حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود[1].

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي عندما قال:

قلت الحيلة هي التحرك ... لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد وهل يجاهد ... من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب ... لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض ... وأي حر لا يذود
هي أن تحس بأن كأس ... الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة ... في الأرض شأنك أن تسود[2]

2 - النظام والدقة:

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطه الذي اتخذه قريباً من نهر السنغال، حيث وضع شروطاً في قبول كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المخربين، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، ومن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمه وتثقيفه من قرآن وسنة وتفسير حديث وأحكام الدين[3].

وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة، واختار لإدارته أحد الأمراء وفي الأمور المهمة كان الأمر شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة[4].

---

(1) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص(71 - 72 - 73).
(2) المصدر السابق، ص(73).
(3) و(4) دولة المرابطين ص(27).

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء، ومن التطبيقات العملية على ذلك نأخذ مثال السفر، حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا عليهم أميراً، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم، وخصوصاً أن السفر كما قال الرسول ﷺ قطعة من العذاب، فعملية التنظيم واختيار الأمير، لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة، قال ﷺ: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»[1]. فلا بد إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء، وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام[2].

3 - القدرة على التعامل مع الناس:

تميزت شخصية الفقيه ابن ياسين بمقدرته في تعامله مع أصناف الناس من أمراء وعوام وتجار وغيرهم من طبقات المجتمع الصنهاجي. كان رحمه الله رقيق الشعور، ثائر العاطفة، يقظ القلب، بعيد الآمال، كبير المطامح في الإصلاح، وكان كل همه أن ينتفع الناس بعلمه ودعوته، ولذلك اختلط بالناس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب وكان في خطابه للناس متحلياً بمكارم الأخلاق بعيداً عن التجريح والإساءة.

واتخذ من القرآن منهجاً في أسلوبه ودعوته متمثلاً بقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: 125].

وقد وصف نبيه الكريم ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: 159]. فليقتد الداعي المسلم برسول الله ﷺ، وليكن شأنه وديدنه لمن يدعوهم، ويتحمل صدور أي أذى منهم.

4 - الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:

نجد أن الفقيه عبد الله بن ياسين رحمه الله، بذل نفسه وماله ووقته وحياته، وكل شيء في سبيل الغاية التي خرج من أجلها إلى قبائل صنهاجة، وقد أيقن هذا الداعية الرباني أنه ليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، إنما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

---

(1) مسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، (1/ 464) رقم (672).

(2) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص(75).

إن المسلم عندما يبذل ما في وسعه من أجل دعوته ورضى ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله، والفوز والخلود والنعيم المقيم بالجنة وأعظم من ذلك إحلال رضوان الله عليه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: 20 - 21].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا، استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ، ويبدلوا أفكار ومبادىء البشر الأرضية بمبادىء سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوى، وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة، وأن يبذلوا المال برضاء وسخاء، ويبذلوا العافية والصحة والسهر والتعب، والمسير المضني، لرفع دعوة الله، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها، بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته[1].

لقد تعمدت الإسهاب في ذكر الصفات اللازمة في الشخصية التي تريد أن تربي أمة وتنشىء شعباً وتبني دولة، لعل الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.

(1) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص(74 وما بعدها).

المبحث الخامس

المراحل التي مر بها ابن ياسين في دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التاريخي لسيرته أنه مر بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين، وبعض المراحل عاصرها وأشرف عليها، وبعضها الآخر قام بها أتباعه المخلصون.

أما المراحل التي مرت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهي: مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ، أما مرحلة التمكين فهي التي أصبحت ملامح دولة المرابطين واضحة للعيان. إن المراحل التي عاصرها وأشرف عليها بنفسه هي مرحلة التعريف والتكوين وجزء من التنفيذ، أما بقية المعارك فقام بها تلاميذه المخلصون من أمثال أبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأما صاحب الفضل بعد الله تعالى في مرحلة التمكين والتوسع والانتشار الفعلي، فهو يوسف بن تاشفين منقذ الأندلس من الضياع ومبيد الحركات الكفرية البدعية من الوجود.

أ - مرحلة التعريف:

قام ابن ياسين في هذه المرحلة بتعريف الناس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة موضحاً لهم أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وقدره» على أصول منهج أهل السنة والجماعة، واهتم بتنقية العقيدة الإسلامية من اللوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقائد الملثمين في تلك الفترة.

واهتم بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وحارب العادات السيئة التي تصطدم مع ثوابت الدين من زنى وزواج بأكثر من أربع وغير ذلك من الأعراف والتقاليد الممزوجة بالجهل والتخلف والضلال، وبذل جهداً في بيان أصول الإسلام للناس وحاول جاهداً أن يربطهم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وأوضح للناس ضرورة الالتزام بالسنة وأنها هي المبينة للقرآن الكريم، بل هي شرح وتفصيل للقرآن العظيم، وعمل على تفسير نصوص

الدين بأسلوب يلائم عقول الملثمين، وأزال الشبهات التي تعلقت بأذهان الناس من قبائل صنهاجة وكان همه جمع الناس على الإسلام ومبادئه والعمل به على العموم.

ودعا الناس جميعاً إلى محبة كل أعمال الخير وكراهية كل أنواع الشر.

ونستطيع أن نقول أن هذه المرحلة في دعوة ابن ياسين كانت انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

وهذه الآية حدد الله بها وظيفة النبي ﷺ وواجبه، وكذلك الدعاة من أمته من بعده.

حيث نجد الداعية الفقيه ابن ياسين سلك في دعوته هذه الأمور أو الوظائف أو الواجبات ألا وهي:

1 - تبليغ وحي الله إلى الناس: وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: 151].

2 - تزكية نفوس الناس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة: بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة وذلك في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

فالداعية إلى الله يطهر نفوس الناس بوحي الله، وينمي أرواحهم وأقوالهم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان، الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق.

3 - التعليم: تعليم الناس العلم النافع، أي القرآن والحكمة، وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 129].

فهو واجب النبي ﷺ، وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين، و«الكتاب» هو القرآن الكريم، وهو هدىً للناس؛ كل الناس، إذ ما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا أمر به القرآن، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38] و﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: 111] و﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: 89].

وقد سمي القرآن الكريم «قرآناً» من بين كتب الله، لأنه جمع ثمرة هذه الكتب كلها، بل جمع ثمرة العلوم والمعارف كلها، إذ القرآن معناه الجمع والإثبات.

والحكمة هي: إصابة الحق بالعلم والعقل، ولها معان، فهي من الله سبحانه: معرفة الأشياء وإيجادها، على غاية ما يكون الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، والعلم بها، وفعل الخيرات و«الكتاب والحكمة» بهذه المعاني هما تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات في عالمي الغيب والشهادة، وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التي أصلحت اعتقادها وتصورها ومنهجها وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية بفضل الله عليها ثم بجهود المخلصين من أمثال الفقيه ابن ياسين.

4 - واجتهد ابن ياسين - رحمه الله - في نقل الناس من ضلال الباطل إلى طريق الحق، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم مسترشداً بقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151] أي يبصركم بحاضركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

كان أثر التربية القرآنية واضحاً في شخصية ابن ياسين - رحمه الله - حيث نجده في تبليغ رسالات الله لا يداهن ولا يجامل بل يأخذ بكافة الأخلاق الشرعية ويتوكل على الله في الصدع بكلمة الحق وكأن بين عينيه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

وكان يشعر في قرارة نفسه بالإثم والمعصية إن قعد وكتم ما علمه الله سبحانه وتعالى، وهذا من أثر القرآن في نفسه حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

والآية واضحة في بيان أن من عرف الحقد فقد وجب عليه أن يبينه للناس، ومن لم يفعل فقد أثم.

إننا محتاجون بأن نتربى على آيات الله، لنفهمها ثم لننطلق في دنيا الناس عاملين بها ابتغاء مرضاة الله، وطمعاً في ثوابه ورغبة في جنته، وخوفاً من عقابه وشفقة من ناره.

نعى الله تعالى في كتابه العزيز على أهل الكتاب عدم بيانهم لأحكام الله للناس وكتمانها مقابل ثمن قليلٍ من متاع الدنيا.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

وهكذا يا أخي الكريم نجد القرآن الكريم في تربيته للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم، فتنطلق القلوب تسعى للمثوبة والدرجات العلى؛ لأن ما عند الله خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التي تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم في السعي الدؤوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح.

فإن السنة النبوية المطهرة - شارحة القرآن - قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روى الإمام البخاري بسنده، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في باب: تعريف النبي ﷺ وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان، والعلم، ويخبروا من وراءهم، قال مالك بن الحويرث - وهو من بني عبد القيس - قال لنا النبي: «**ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم**».

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ لما قدم إليه وفد عبد القيس: «**من الوفد، أو من القوم؟**» قالوا: ربيعة، فقال: «**مرحباً بالقوم، أو الوفد، غير خزايا ولا ندامى**»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده، قال: «**هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم**».

ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت، قال شعبة: ربما قال: «**النقير**» وربما قال: «**المقير**» قال: «**احفظوه وأخبروه من وراءكم**»[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف نهج للقوم لمعرفة أصول الدعوة في مرحلة التعريف، ومعالجة الأمراض المنتشرة في المجتمع، حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت في ربوع هؤلاء القوم انتشار النار في الهشيم، ولذلك نهاهم رسول الله ﷺ

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله، (1/ 46) رقم (17).

عن الدباء والحنتم والمزفت التي كانت عبارة عن أوانٍ لشرب الخمر، ومن مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة أولويات مرحلة التعريف في الدعوة إلى الله تعالى، وغيره من الأحاديث الكثيرة والإرشادات النبوية الكريمة.

استمر الفقيه ابن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التي تطلبها شريعتهم وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة.

إلا أن الله تعالى ابتلاه بقوم غلاظ الأكباد قساة القلوب فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم، فتعرض للتضييق والشدة والتعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة من قبيلة جدالة وحاولوا قتله إلا أن الله نجاه منهم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفي يحيى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

وقال له: «إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا وإذا ملأ دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحوش والحوت[1].

وبذلك يكون ابن ياسين - رحمه الله - ترك ديار الملثمين واختار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة وتربية المريدين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بعد أن ترك صدى ودوياً لدعوته في ديار الملثمين، وبذلك قرر ابن ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختاراً مكاناً مناسباً لهذه المرحلة المهمة في تاريخ دولة المرابطين بعد أن نجح في مرحلة التعريف في إبلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

ب - مرحلة التكوين عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد:

اشتهر في تاريخ المرابطين ما يُسمى برباط ابن ياسين، وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذي اتخذه في مرحلة التكوين أرى من باب الفائدة للقارىء الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرباط في الإسلام.

---

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(23).

الرباط:

الرباط حصن حربي يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أما القرآن: فمن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

ومن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

وفي الحديث النبوي: في البخاري جاء فضل الرباط في سبيل الله تعالى عن سهل ابن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»[1].

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين من أعدائهم، وأطلق المسلمون على الثغر أي المحل الذي يقيمون فيه اسم الرباط.

ويحتوي الرباط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الربط لحماية الدولة الإسلامية على مر التاريخ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قربها من البحر ليكون أهلها من المرابطين»[2].

وقد توسعت الربط في عهد العباسيين، وبنى الوالي العباسي هرثمة بن أعين أول رباط في إفريقية عام (179 هـ795/ م)[3] وتوسع الأغالبة في هذا المجال توسعاً عظيماً، وأقام الوالي زيادة الله الأغلبي رباط سوسة عام 206 هـ/ 822م.

---

(1) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير (ج3/ 295)، حديث رقم(2892).

(2) انظر: المالكي رياض النفوس، ص(6).

(3) دائرة المعارف الإسلامية مادة رياض، ص(19).

وكان الأغالبة يسمون هذه الربط بالقصور والمحاريس، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالي الشمال الإفريقي يلجؤون إليها إذا داهمهم الغزاة، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحري عن احتلال الساحل الإفريقي، وقد التزم المقيمون في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة، بالإضافة إلى كافة التدريبات الجهادية الأخرى التي أهَّلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق، وكانت الربط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصبحت الثغور في الشمال الإفريقي مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرباط، وكذلك يقومون بإعداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة[1].

وأما من ناحية العبادة، فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام، فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وضعت عقوبات لمن تأخر عنها.

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة ويقومون بالمهمات التي تتعلق بحياة الرباط، وبما أن التبشير لهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجباتهم فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه، وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقي خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين، فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق، وكان لمنهج أهل

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(24، 25).

السنة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي، وتميز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله، ولا يبتغي أهلها من الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً، وإنما لسان حالهم أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً[1].

1 - رباط عبد الله بن ياسين:

أقام الفقيه العالم الرباني المربي المجاهد ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها، فهو يقع قريباً من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مهدد دائماً بالأعداء، ولا بد للجامعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار الملثمين، فيستند إليهم في حالات الخطر، وتشكل تلك الديار مورداً بشرياً لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله.

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام 433هـ/ 1040م ومعه أتباعه المخلصون ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثمين وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل، ولما كثر أتباعه وضع ابن ياسين شروطاً رآها لازمة لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التي بدأ الشروع فيها، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوراتهم التي تخالف الإسلام ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع الله على وجه المعمورة[2].

وعمل جاهداً على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد، وكان يرى أن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها، وهي مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها، فمنهم من يكتفي بالتوبة النصوح، ومنهم من يطلب قضاء ما فات.

وكان ابن ياسين يهتم اهتماماً بالغاً بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربية الناس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة.

---

(1) المصدر السابق، ص(27).

(2) انظر: دولة المرابطين، ص(27 - 28).

وكان لا يمنعه الحياء من طرد من لا يراه مناسباً لهدفه المنشود.

وكان أهل الرباط في قمة من الصفاء الروحي ويعيشون حياة مثالية في رباطهم، فيتعاونون على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصيد البحري، يقنعون بالقليل من الطعام، ويرتدون الخشن من الثياب[1].

كان رباط السنغال الذي أسسه الداعية الرباني ابن ياسين منارة يشع نورها وخيرها وعلمها في تلك الصحاري القاحلة، فأصبح قطباً جذاباً عاملاً على جذب أبناء قبائل صنهاجة إليه، ووفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة، فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة.

وتميز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله مما ساعد على قوة النواة الأولى لدولة المرابطين حيث تشكل مجلس الشورى وجماعة للحل والعقد تطورت مع مر الأيام وأصبحت مرجعية عليا للملثمين.

2 - أصول المنهجية العلمية والفقهية عند الفقيه ابن ياسين التي ربى عليها أتباعه:

يعتبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب، استمد أصول فهمه من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي، إلا أنه كانت له اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها وتحرك بها، وبذلك نستطيع أن نقول عنه بأنه فقيه مالكي حركي، ويرى علماء المالكية الذين تتلمذ ابن ياسين على كتبهم وفقههم أن المذهب المالكي له أصول في الاستنباط واستخراج الأدلة الشرعية ومن هذه الأصول:

المصدر الأول: القرآن الكريم:

كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشتمل على كليات الشريعة، وأنه عمدة الدين، وآية الرسالة، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين، فابتعد عن نظر المتكلمين، هل القرآن لفظ ومعنى أو معنى فقط، وهو عنده اللفظ والمعنى، كما هو إجماع من يعتد بهم من المسلمين، وروي أنه كان يقول: إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(27 - 28).

زنديق يجب قتله، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآناً يُتلى تجوز به الصلاة، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول، وهو يأخذ بنص القرآن، وظاهره ومفهومه، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها[1].

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتباعه وكان موقفهم الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه، ومما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات، فالقرآن الكريم لم يفرّق بينها، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل، الداعية إلى كل هدى ورشد، والمحذرة من كل ضلالة وغي، فكان وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم أو يتردد عزمهم في أي تصور أو معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن، لإيمانهم العميق بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

وكان تدبر ابن ياسين وفقهاء المرابطين للقرآن الكريم معيناً لهم على استنباط الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 29]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24].

لقد فهم المرابطون أن القرن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات، بل نزل ليحكم الأحياء، وأنه لم ينزله الله تعالى إلا من أجل اتباعه والعمل به، وبذلك ينال المتبع والعامل به رحمة الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

إن الله تعالى حدد في كتابه أهداف القرآن الكريم في الحياة والمجتمع في عبارات أبين من الشمس في رابعة النهار فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

(1) انظر: تاريخ التشريع، مناع القطان، ص(291).

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: 15، 16].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: 9، 10].

إن من أسباب قوة المرابطين وتوفيق الله لهم تمسكهم بكتاب الله.

المصدر الثاني: السنة النبوية:

اعتمد المرابطون وخصوصاً فقيههم الأكبر ابن ياسين على السنة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية وألزموا أنفسهم وغيرهم بمنهج الله تعالى.

والسنة عند المرابطين: هي المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

ويتمثل ذلك في أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته.

فالقرآن: هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وأدابه.

والسنة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ورأى علماء المرابطين وجود أتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59].

وجعل طاعته طاعة لله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

وجعل سبحانه وتعالى طاعته الاهتداء: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: 54].

وجعل سبحانه وتعالى اتباع النبي ﷺ دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

وأمرهم باتباعه فيما أمر ونهى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24].

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خياراً في قبول حكمه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

وأقسم على نفي الإيمان عمن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حكمه راضياً مسلماً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

وجعل سبحانه وتعالى قبول حكمه أو التولي عنه المحك الذي يميز الإيمان من النفاق. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: 47 - 48].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

وحثَّ على الاقتداء بالنبي ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ودلت أحاديث كثيرة على وجوب اتباع النبي ﷺ، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أنه قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[1].

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله، كأنها موعظة مُودِّع: فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من**

(1) أخرجه البخاري (7280).

يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمر، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

إن قبائل صنهاجة الذين عرفوا بالملثمين ثم أطلق عليهم اسم المرابطين ظهرت آثار التزامهم بسنة النبي ﷺ في كافة مناشط حياتهم: في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي كونوا بها دولتهم المعروفة.

المصدر الثالث: عمل أهل المدينة:

الذي اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً عمل أهل المدينة حيث إنها دار الهجرة، وبها تنزَّل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ ومعه أصحابه بها، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ، على هذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدموا دلك على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد الفقيه المصري: «إن الناس تبع لأهل المدينة، التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن»[2].

وسار فقهاء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بن ياسين على هذا الطريق ولم يغيروا أو يبدلوا أو يرضوا بغيره حولاً.

المصدر الرابع: قول الصحابي:

جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكر الإمام مالك في «الموطأ» حيث اعتمد في كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصحابة الذي هم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد.

وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة يختار علماء المالكية من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

المصدر الخامس: المصالح المرسلة:

اعتبر المالكية المصالح المرسلة دليلاً شرعياً ومارسوها ممارسة عملية في الحياة

(1) أخرجه أبو داود (4607)، والترمذي (2676).

(2) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص(291 - 292).

وأصّلوا لها أصولاً في جلب المنفعة ودفع المفسدة، وقاسوا بهذه القواعد الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية أو حاجية، أو تحسينية.

والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمس في الملل جميعاً وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال والعقل.

والحاجية: هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة، مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب المالكية إلى أن المصلحة تكون حجة ويعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية.

المصدر السادس: القياس:

وهو من أصول المنهجية العلمية التي سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه.

المصدر السابع: سد الذرائع:

سار عليه ابن ياسين في منهجه العلمي في تأصيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك - رحمه الله - الذي أكثر إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه حتى وصفه الشاطبي بأنه كان شديد المبالغة في سد الذرائع[1].

ج - مرحلة التنفيذ التي قام بها ابن ياسين:

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه وأتباعه مرحلة التكوين العقدي والفقهي والحركي والتنظيمي والتربوبي، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله، وفقه واسع لسنة نبيه ﷺ، ورغبهم في ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، وخوّفهم من عقابه، وتمكن حب الاتباع من قائدهم العالم الفقيه، بدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القبائل، لترغيب الناس في الإسلام، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله.

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته

(1) انظر: التشريع والفقه في الإسلام، مناع القطان، ص(294).

يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسنة نبيه ﷺ، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم، خرج إليهم بنفسه، فجمع أشياخ القبائل، ووعظهم وحذرهم عقاب الله، واستمر في ذلك سبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فسقاً فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم[1].

تحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة، حيث اشتبكوا معهم في معركة شرسة وأوقعوا بهم الهزيمة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم، ودخلوا في طاعة ابن ياسين، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، ثم مضى إلى قبيلة مسوفة التي دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مبايعة ابن ياسين على بذل الطاعة له، وقلدتها كثير من القبائل الصحراوية في ذلك[2].

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركزت على توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وبدأ ابن ياسين في تخطيط الدولة التي شرع لتأسيسها على أسس شرعية ربانية، وفي ظني أن الذي أسس الدولة المرابطية فعلياً ونفذ أحكامها الشرعية هو يوسف بن تاشفين، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية، ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، قدم ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتوني وكان من أهل الدين والفضل، كما كان منقاداً في جميع أموره لإمامه ابن ياسين[3].

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجية في المغرب الأقصى لها قيادة دينية وسياسية ومجالس شورى تدير دفتها وحركتها فتطلعت لتوحيد المغرب الأقصى كله وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها.

أ - الوضع السياسي في المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري في محنة سياسية ودينية حيث ظهرت دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تشكل كياناً سياسياً تحتمي به وأصبح المغرب

(1) انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص(85).
(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د.حمدي عبد المنعم، ص(41).
(3) انظر: دولة المرابطين، ص(31).

الأقصى شبيهاً بالأندلس في زمن ملوك الطوائف، وكانت الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها في المغرب الأقصى.

أولاً: قبائل غمارة في الشمال.

ثانياً: قبائل برغواطة في المغرب.

ثالثاً: قبائل زناتة وكانت تكوِّن نطاقاً حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة.

رابعاً: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب.

1 - الطائفة الأولى قبائل غمارة:

كانت تسكن جبال الريف الممتدة من ناحية البحر المتوسط من سبتة وطنجة غرباً، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمة الحالية شرقاً، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس، وكانت غمارة بطناً من بطون مصمودة وظهر فيها مشعوذون، وقصدتهم الخوارج للمنعة في جبالهم، ووصفهم المؤرخون من أمثال ابن خلدون وغيره: بأنهم: «عريقون في الجاهلية؛ بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم إنسان يعرف حاميم بن مَنّ الله، ولقب بالمفتري، وفي رواية أخرى بالمقتدي - ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى المفتري - والجبل الذي تنبأ فيه ينسب إليه، وهو جبل على مقربة من تطوان، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ووضع لهم قرآناً بلسانهم «أي البربري»، ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل أنثى الخنزير، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وحرم عليهم الحوت حتى يُذكى، وحرم بيض كل طائر... إلخ»[1].

وقد قتل هذا المشعوذ الزنديق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في طنجة في حروبه مع قبائل مصمودة الساحلية على حد قول البكري وابن خلدون، أو في حروبه مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمٰن الناصر على حد قول صاحب «الاستبصار»، وصاحب «مفاخر البربر»[2].

---

(1) انظر: الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول، ص(190).

(2) انظر: كتب الاستبصار، ص(191 - 192)، ومفاخر البربر ص(77).

واستمرت البدع الكفرية بالرغم من موت المتنبي المشعوذ، وظهر أحد أبنائه ويدعى عيسى وكان مبجلاً في قومه، وكانت قبائل غمارة غارقة في الإباحية بين النساء والرجال، وكان رجالهم يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها... إلخ[1].

2 - الطائفة البرغواطية:

كونت هذه الطائفة الكافرة دولة لها في القرن الثاني للهجرة في إقليم تامسنا أو ما يُسمى اليوم بالشاوية[2]، وكانت دولتهم تمتد من الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع.

ونجد أن المؤرخين اختلفوا حول اسم برغواطة، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد، بل كان اسماً لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل، ادعى النبوة، اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس فصارت كلمة برباطي تُطلق على كل من اعتنق ديانته، ثم حرفت إلى برغواطي[3].

ويرى ابن خلدون بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب[4].

ومن عقائد هذه الطائفة الضالة اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه.

وشرَّع لأتباعه صوم رجب والأكل في رمضان، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين، وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود،

(1) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي ص(278).
(2) المصدر السابق، ص(279).
(3) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي، ص(279).
(4) ابن خلدون، العبر، (ج2/ 210).

وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى، ويقول البربرية ابسمن باكش، وتفسيره باسم الله، ثم مقر ياكش، أي الله أكبر، ويقولون في تسليمهم بالبربرية أيحن ياكش، ووردام ياكش أي الله أحد لا مثيل له، وضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس.

وأباح لهم تزوج النساء فوق الأربع، وأباح لهم الطلاق، وحرم عليهم زواج بنت العم، وزواج المسلمات، كذلك شرع قتل السارق، ورجم الزاني، ونفي الكاذب، وحرم رأس كل حيوان، وحرم ذبح الديك، والحوت أي السمك، لا يؤكل إلا أن يذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام، وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك ولذلك حرموها، إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية وإلى حد كبير تشبه ديانة حاميم المفتري في غمارة[1].

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية حيث يمكننا أن نقول إنها ديانة مشوهة للإسلام تعمل للقضاء عليه. وكانت هذه الدولة عند أهل السنة والجماعة مجوساً منحرفين مارقين عن الدين الحنيف، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم.

واستمرت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة 125هـ في خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السنة المرابطين الملثمين الذين قضوا عليهم قضاءً مبرماً، وقد ذكرت كتب التاريخ إن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسب هذه الدولة الكفرية والطائفية البدعية وكان خطرها أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ[2].

3 - الطائفة الثالثة وهي الدولة الزناتية:

وهي تتكون من قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة حيث قامت بدور إيجابي في حرب

---

(1) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر، ص(77)، انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، ص(281).

(2) في المغرب والأندلس، ص(278).

الدول البرغواطية، إلا أن حكام هذه الدولة اشتهروا بالجور والظلم والتعسف في آخر زمانهم[1].

4 - الطائفة الرابعة طوائف الشيعة والوثنيين:

كان محلهم جنوب المغرب في أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليات مبعثرة.

أما الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا دعاة للفكر الشيعي الرافضي، وبعضهم يرجع جذورهم وأصول فكرتهم للدولة العبيدية الرافضية التي جاء ذكرها في صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي «الدولة العبيدية الرافضية» لقد كان الصراع عنيفاً بين الشيعة وبين أهل السنة في كل ناحية وضاحية ومكان في المغرب كله، وتوج جهاد أهل السنة بالقضاء على الدولة العبيدية إلا أن بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوتهم السنية الميمونة. أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر، وكان الوثنيون يعبدون الكبش، ويبدو أنهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم، فكأن طقوس هؤلاء الوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة[2].

لقد اتضح لي في دراستي التاريخية لبلاد المغرب أنها كانت تعاني من تفكك سياسي وتكونت دول طائفية على مناهج منحرفة عن دين رب البرية، وكانت شعوب تلك الديار قد غرقت في وحل الجهل، ومستنقعات الانحراف وفساد التصور، وضياع الأخلاق، وكثرة الظلم، وانتشار العسف والجور وكان علماء وفقهاء المرابطين على علم ودراية، وقد وضعوا في خطتهم الجهادية توحيد المغرب الأقصى والقضاء على الدولة الطائفية الكفرية، وإزالة الظلم والجور والتعسف.

وعملوا على توحيد الديار المغربية وتربيتها على منهج سني مالكي، ومحاربة المناهج الكفرية، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

---

(1) في المغرب والأندلس، ص(289).

(2) المصدر السابق، ص(291).

د - الشروع في توحيد المغرب الأقصى:

في عام 447 هـ/ 1055م اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكم الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، قالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله»[1].

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة 447هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء»[2].

وفي عام 448هـ/ 1056م توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس ففي ربيع الثاني سنة 448هـ سار المرابطون صوب بلاد السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكين وتمكنوا من احتلال أرودانت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة[3].

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذٍ لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وحاصروها واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتلمّس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام 449هـ/ 1057م وأقاموا فيها ما يقارب من الشهرين، وتحركوا حركات حربية محكمة للقضاء على فلول المغراويين، واستطاعوا قتل أمير أغمات وتزوج أبو بكر بن عمر من زينب النفراوية زوجة لقوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم

---

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (2/ 128).
(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (2/ 182).
(3) في المغرب والأندلس، ص(293).

يومئذٍ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها العالم الرباني والمقاتل الميداني والفقيه الموجه ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً حمل على إثر تلك الجراح إلى مقر القيادة في معسكر المرابطين، وقبل خروج روحه جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة، ولم يلبث أن فارق الحياة[1] فعلى أمثال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنان، واتفق رأي المرابطين على اختيار أبي بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية، بينما يؤكد كل من القاضي عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو، ليرجعوا إليه في مشاكلهم وقضايا دينهم، وتولى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة، واستعداد للتضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة، وطمس المعالم الكفرية للدولة البرغواطية، فأمر بتعبئة جيوشه المجاهدة وخرج لقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية، وفرق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة 452هـ/ 1060م ثم تابع سيره في بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني 452هـ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقراً للأمير وإخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بنائها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعين ابن عمه يوسف وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبني يفرن وغيرهم، ووقع اختياره على أربعة من القواد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمس آلاف من قبيلته،

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(44).

وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة وبلداً بعد بلد، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

واستمر في توحيد بلاد المغرب وسنرى جهوده الجهادية في سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع تأمين الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية رجع إلى المغرب الأقصى بجيوشه فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكراماً يليق بالقائد الرباني أبو بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائباً عنه على حكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين ثم ودعه وعاد إلى الصحراء، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في إحدى غزواته في سنة 480هـ/ 1087م[1].

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عنه أي عن أبي بكر بن عمر: «اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من ملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كان يعتقد طاعته، وكان مع هذا يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته[2].

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعاً وديناً وحباً للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام وساهموا في

(1) البداية والنهاية، (12/ 143).

(2) المصدر السابق نفسه.

بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة.

هـ - تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية:

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، وتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ حيث شرع في قتال القبائل التي لم تحترم أو تقدس حرمات الله، وأزال المنكرات، واعتبر ذلك جهاداً في سبيل الله.

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التي تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع، ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفي هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلُوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل**»[1].

إن حركة المرابطين كانت موفقة حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سجلماسة لإسقاط الدولة الزناتية التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقق المصلحة كان أرجح، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين، وتدفقت جيوش المرابطين، وتعاونت مع المستضعفين، وطهرت البلاد من هيمنة العابثين، ونشرت العدل بين المسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين، وفي نظري أن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله، ثم إن القيادة الفعلية للعلماء والفقهاء ومجلس الشورى الذي يمثل أهل الحل والعقد ممن شهدت لهم جموع المرابطين بأنهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة، وفتاويهم موزونة، ومعاركهم مدروسة.

أما قتالهم لبرغواطة، وغمارة، ذات المعتقدات الكُفرية والانحرفات العقدية

---

(1) صحيح مسلم رقم (50، ج1/ 70).

فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وقفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبدلت بأصول سنية زكية بهية.

كما لاحظت أن للعماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام في الشمال الإفريقي، حيث نجد أن الإمام أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط العريضة والإرشادات النافعة لدولة المرابطية، ثم وجه الأمير يحيى بن إبراهيم إلى موقع من مواقع حلقة الاتصال الواسعة بين العلماء ليرسل قائد تلك الجهة وهو ابن وجاج مع الأمير يحيى أحد الأفراد الذي يتوسم فيهم ذكاءً ونجابةً وصلاحاً وتفوقاً للدعوة في قبائل صنهاجة وكان اختيار ابن وجاج في محله الذي استمر على اتصاله بشيوخه.

كما أن علماء سجلماسة كانوا ضمن شبكة من شبكات التعاون بين فقهاء أهل السنة فهم الذين شجعوا جيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربية تحت لواء دولة سنية.

المبحث السادس

مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين

القائد الرباني يوسف بن تاشفين

400 – 500 هـ/1009 – 1106م

تمهيد:

قد علمت بأهم المراحل في فقه الدعوة إلى الله التي مر بها الإمام ابن ياسين حيث نجده نجح نجاحاً عظيماً في تنفيذ مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ واستشهد في مرحلة التنفيذ وتولى القيادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذي سار على نفس المنهج الذي رسمه ابن ياسين.

واستمر في فتح مدن المغرب إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف ودخل بالباقي نحو الجنوب داعياً ومجاهداً ومصلحاً واستمر في فتوحاته حتى استشهد – رحمه الله – وتولى الأمر بالكلية القائد الرباني ابن تاشفين الذي أنهى مرحلة التنفيذ وانتقل إلى مرحلة التمكين.

أ – نسبه:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي وأمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين. وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي فنما عزيزاً كريماً في قومه.

قال عنه المؤرخون من أمثال أشياخ: «خلق للزعامة»[1].

ملك له الشرف العلي من حمير وإن اتهموا صنهاجة فهم هم[2]

---

(1) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص(65).

(2) وفيات الأعيان، (ج7/ 130).

كان يوسف أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين، أجعد الشعر[1].

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين أبدع المواهب، كان بطلاً شجاعاً، نجداً حاذقاً، جواداً كريماً، زاهداً في زينة الدنيا، عادلاً متورعاً، متقشفاً لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير، ولحوم الإبل وألبانها[2] كان عزيز النفس كثير الخوف من الله.

كان يحب الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ما عدا الذين يرتكبون الخيانة في حق الدين فلا مجال للعفو عنهم[3].

ربته الأحداث وصاغت من شخصيته قائداً فذاً وبرهنت الأيام على أن له مقدرة على فهم واقعه قادراً على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل.

تلقّى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحدثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام، وسنرى ذلك بإذن الله في بحثنا هذا.

تذكر كتب التاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر بن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها: أنت امرأة جميلة بضة، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين، وتزوجها يوسف بعد تمام عدتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة بارعة الحسن حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وتوفيت عام 464هـ/ 1071م.

---

(1) دولة المرابطين، ص(36).

(2) انظر: الروض القرطاس، ص(87).

(3) دولة المرابطين، ص(36).

وتزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تدعى قمر ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئاً، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد، وأمير الأندلس والمغرب بعد والده.

وتزوج يوسف امرأة تسمى عائشة وأنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة، ورزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان والياً على سبتة، وعلي الذي تولى الإمارة بعده، وإبراهيم ومحمد الذي كان أحد القادة البارزين في جيش والده وأما بناته فهما: كرنة ورقية[1].

ب - المراحل العسكرية التي مر بها يوسف في جيش المرابطين:

1 - 448 - 452هـ/ 1056 - 1060م:

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقَّى الأوامر وينفذها بكل نجاح، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التي شحذت ذهنه وأهَّلته للمرحلة التالية، فكأنها كانت ممارسة للسلطة، والاطلاع على خفايا دون تحمل المسؤولية، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بكل الأوامر التي وكلت إليه بكل همة ونشاط دون تردد، وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات 448 هـ 1056م التي كان فيها قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السنة.

ثم جاء دور أغمات، كانت مدينة مزدهرة حضارياً إذ كانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقراً للبربر المتهودين، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي.

---

(1) دولة المرابطين، ص(38).

تلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بالزحف نحوها ومهاجمتها ودكها، ودخل المرابطون المدينة 449هـ/ 1057م.

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة برغواطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها كما علمت في 451هـ/ 1059م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ أن جانب الإمامة يغالب على جانب الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين، وبعد وفاته تولى أبو بكر بن عمر، فرجح جانب الإمارة على جانب الإمامة وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلى طابع سياسي جديد ومرت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء وأناب ابن عمه يوسف على المغرب ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم الناس بزعامته وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمر رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم»[1].

ويحلو لبعض الكتاب من المؤرخين أن يفسر هذا الإيثار والتنازل عن الملك بأن أبا بكر خشي من سطوة يوسف الذي أظهر له عدم استعداده عن التنازل عن الملك وسيرة الرجلين من الصلاح والتقوى تنافي ادعائهم الباطل.

(1) انظر: روض القرطاس، ص(86).

2 - فتح المغرب الأقصى الشمالي 454هـ - 477هـ:

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من أيدي الزناتيين واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيداً من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صلحاً عام 455هـ، ثم تمرد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد كافة الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام 460هـ/ 1067م.

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مئة ألف جندي عام 462هـ/ 1069م، فقضى على شوكة مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام 463هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة[1].

3 - لقب الإمارة:

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة وخرج بهم يطوف في أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة وينشر العدل ويرفع المظالم فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقري فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام 465هـ/ 1172م لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفي عام 467هـ/ 1074م استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا وجعلها حداً فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاحاً إلى طاعته مطمئناً إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناتة ولذلك اعتبر المؤرخون عام 467/ 1074م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

---

(1) روض القرطاس، ص(91)، العبر (6/ 185).

وسيَّر يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام 470هـ وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت[1] وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسعه نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلي بن يعلي المغراوي الذي قتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ويعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام 475هـ/ 1081م وبذلك توحد المغرب الأقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام 476هـ/ 1083م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى، فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية كانت طاحنة، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، كان ذلك عام 477هـ/ 1084م[2]، بعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بكافة نواحيه بعد عمل جاد مستمر، وأصبحت الدولة المرابطية قوة لا يُستهان بها تُشكل خطراً على النصارى في الأندلس، وملجأ وحصناً أميناً للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم في الأندلس، حيث قامت دويلات في كل مدينة وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعرف حكامها

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(50).

(2) انظر: الاستقصار (1/ 111)، وانظر: دولة المرابطين، ص(53).

بملوك الطوائف وتلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاضاً صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الأندلس إلى السوء، وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين، تهدف إلى طردهم من إسبانيا، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القومية وأطلقوا عليها حرب الاسترداد[1].

ولم تكن للمقاومة الإسلامية في الأندلس القدرة على إيقاف المد الصليبي الزاحف للخلاص من المسلمين فاضطر أهل الأندلس إلى طلب العون من المرابطين.

(1) انظر: دولة المرابطين، ص(59).